

تعليم المرأة وإسهاماتها الفكرية في المغرب الإسلامي في العصرين الموحدي والحفصي.

الأستاذة صفية ديب

أستاذة التاريخ الإسلامي، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر

من مصادر العلم، وينبوع من ينابيع
المعرفة، عبر كامل العصور الإسلامية.

ومما دلّت المصادر عليه أن طائفة
منهن اشتهرت بتخصصهن في ميدان
العلم، وممارسة التدريس، أو الطب أو
الشعر أو مخاطبة الملوك، وسنحاول
التعرف كيف تمتعت الفتاة بحقوقها في
التعليم؟ وأين كانت تتلقى تعليمها؟ وهل
التحقت بالكتاب والمساجد؟ وإلى أي مدى
ساهمت في نشر العلم وما المستويات
التي وصلت إليها في تعليمها؟

لم تكشف النصوص المتوفرة -
التي وقعت بين أيدينا - أن الفتاة قد
التحقت بالكتاب صبية، ولم تؤكد لنا
انضمامها إلى حلقات الشباب وكان

أوجب الإسلام طلب العلم على كل
مسلم دون تمييز في الجنس، فالرسول
صلى الله عليه وسلم يقول: ((طلب العلم
فريضة على كل مسلم)).

ولذلك سار تعليم المرأة جنبا إلى
جنب مع تعليم الرجل، في كل بلاد
الإسلام بما فيها المغرب الإسلامي في
عصر الموحدين والحفصيين من القرن 6
إلى 10هـ.

فقد أقرّ التربويون المسلمون
مبدأ تعليم الفتاة، واعترفوا بحقوقها
فيه لضرورة معرفة دينها الإسلامي
من عبادات، ومعاملات، فالمؤمنون
والمؤمنات مكلفون جميعا بنص القرآن،
هكذا كانت المرأة منذ عصر النبوة مصدرا

الطب، ماهرة في التدبير والعلاج وكانت تشرف على علاج أسر الأمراء الموحدين، يضاف إليها أخت أبي بكر بن زهر المشتهرة بخبرتها في مداواة النساء كما كانت المرأة تأخذ العلم على أيدي علماء في منازلهم سواء ذهب المؤيدون إلى دور الخلفاء والأثرياء ليتأدب أولادهم، وبناتهم، أو أن الأولاد والبنات، كانوا يقصدون المؤيدين في أماكن تواجدهم؛ لكن النصوص لا تحدد بدقة مكان هذا التعليم.

ولا شك أن الأميرة تميمية بنت يوسف بن تاشفين المكناة بأم طلحة بلغت العلوم على أيدي مؤيدبن التحقوا بقصر والدها، ووصفت بكمال الحسن ورجاحة العقل والشهرة بالأدب والكرم.

أما تعليم النساء للنساء فقد كان أمراً شائعاً في المغرب الإسلامي، إذ نبغت كثيرات ممن احترفته كحفصة الركونية المتوفاة سنة (581هـ/1185م)، من أصل غرناطة ورفاتها في مراكش كانت تشرف على تعليم النساء في دار المنصور، والسيدة العبدرية بنت عبد الغني بن علي أم العلاء، معلمة فاضلة من أهل غرناطة

الغالب أن تتعلم في دور المنازل التي كانت كتاتيب ومساجد يتلقين فيها العلوم بجميع أنواعها، كما ظلت بيوتات العلماء والفقهاء وقصور الخلفاء أيضاً مراكز لتعليم المرأة، فكانت تأخذ العلم عن والدها أو أحد أقاربها أو مؤدب يدعى لها. وكانت للبيئة المحيطة بها تأثيراتها في تحديد نوع التعليم الذي تتجه إليه، فبنات العلماء والمقرئين والأطباء ورواة الحديث وزوجاتهم كثيراً ما كن يتلقين هذه العلوم عن أقاربهن، إذ أن تلك الأعداد الكثيرة من العلماء والفقهاء الحافلة بهم كتب التراجم سوف يقبلون على تعليم محارمهم فحفصة ابنة الأستاذ أبي عبد الله محمد بن أحمد السلمي المعروف بابن عروس قرأت كثيراً من كتب الحديث والأدب، ودرست كتاب الموطأ وأحكمت عن أبيها القراءات السبعة، وأم المجد بنت أبي الحسن الشاري السبتي المتوفية سنة 649 هـ/ 1251م تعلمت الحديث عن أبيها وأصبحت مسنده.

وفي مجال الطب نبغت بعض الأخوات الطبيبات، كأم عمر بنت أبي مروان بن زهر التي وصفت بأنها متقدمة في

ويذكر الزركلي أن العبدرية السابقة الذكر كانت حسنة الخط مكنها من نسخ الأخبار للغزالي.

ومما لا شك فيه أن المرأة بلغت شأنًا عظيمًا في الأدب إلى درجة نبوغ بعض النساء في قول الشعر وهذا ما يؤكد الرحالة التيجاني في قوله: ((إن لأهل تونس في الأدب باعًا مديدًا فلم يكن منهم من لا يقول الشعر حتى النساء...)).

فهااته الأدبية التي نبغت بمدينة بجاية التابعة إذ ذاك للمملكة الحفصية وهي عائشة بنت الشاعر أبي الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسيني كانت أديبة فصيحة حسنة الخط.

ومن عائلة التيجاني برزت زينب بنت أبي إسحاق إبراهيم التيجاني في قول الشعر وكانت من أشهر الأديبات التونسيات في العصر الحفصي، وفي الحياة الدينية نجد السيدة عائشة المنوبية قد اشتهرت بتفقهها في الدين وقد اتصلت هذه الصالحة بالشيخ أبي الحسن الشاذلي وتلقت عنه الطريقة الشاذلية وكانت تنفق على نفسها بما تكتسبه، كما كانت

نشأت بمُرسية وتوفيت بتونس سنة (647هـ/1249م) كانت حافظة للقرآن، أصلها من غرناطة وفد أبوها مهاجرا إلى تونس أوائل القرن 7هـ/13م فولدت له هذه الفاضلة، اعتنى والدها بتربيتها وتعليمها كانت آية في حفظ القرآن إلى جانب اهتمامها بتعليم النساء، وعندما أقعدها المرض ثلاثة أعوام فخلفها على مباشرة التعليم بنتان لها كانت قد كونتهما لأخذ مكانها في التعليم.

ونذكر أيضا أم العز بنت أحمد بن علي بن هذيل البلنسية المتوفاة سنة (636هـ/1238م) كانت تقرأ النساء وتعلمهن الآداب).

كما كانت النساء تمارسن التعليم مع أبناء أسرهن ونذكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن سيد الناس أنه تلا على أبيه وجدته أم أبيه أم العفاف نزهة بنت أبي الحسن سليمان بن أحمد بن سليمان اللخمي.

وهناك من النساء من اشتهرت بخط الكتب ونسخها فأحمد بن عبد الله ابن الحطية اللخمي المتوفى سنة 560هـ/1164م علم ابنتيه كتابة الخط،

ملف الصدق

أن اهتمت الدولة الحفصية بتعليم البنات منزليا وصناعيا عن طريق المدارس التي تقع في المنازل، وكانت صاحبات هذه الديار يقمن بدور المعلمات، فيقمن بتلقين البنات وتعليمهن القرآن الكريم، والمبادئ الدينية، وتدريبهن على الشؤون المنزلية وعلى الأشغال اليدوية، مثل الغزل، والتفصيل، والخياطة، والتطريز.

وصفوة القول أن المرأة المغربية شاركت أيما مشاركة في الحياة العلمية، فتعلمت ما تحتاج إليه في حياتها، بل واستزادت من العلم ونشرت ما تعلمته بين بنات جنسها، كما نالت المرأة حظها في المجال الأدبي أيضا، فإذا قيس عدد النساء - سواء اللواتي زودن بقسط من العلم، أو اللواتي نبغن في حقل من حقول العلم - بعدد الرجال فإن الفرق يعد شاسعا في الحالتين للأسباب التالية:

1 - إن التعليم كان مقتصرا غالبا على الخاصة من نساء الحكام والعلماء محصورا في بعض الدور والقصور وبيوتات العلم.

2 - نيران الحروب وما تسببه من إتلاف للكتب قد تكون بينها من أرخت

كثيرة الصدقة على الفقراء وأدى هذا إلى ذيوع صيتها لعبادتها وصلاحها وكثرة أعمالها الخيرية وقد توفيت سنة 665هـ/1266م.

كما كان للمرأة الحفصية دور أساسي في المجتمع وهو رعاية الأسرة وتربية الأولاد والاهتمام بقضايا التعليم، وقد لعبت الأميرات من البيت الحفصي اللاتي كان لهن نصيب كبير في بناء المدارس، وتشيد المساجد التي كانت بمثابة جامعات عصرنا الحالي، والتي كان لها الأثر الكبير في نشر العلم والتعليم بين البنات والبنين، فنجد أن الأميرة عطف زوجة الأمير أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية 625هـ/1228م في تونس قد أمرت ببناء المدرسة التوفيقية بتونس، وهي أول مدرسة مستقلة أسستها الأميرة على نفقتها الخاصة، وكذلك جامع التوفيق كما أقامت الأميرة فاطمة شقيقة الأمير أبي بكر بن أبي زكريا سنة 742هـ/1341م المدرسة العنقية بنهج عنق الجمل بمدينة تونس على نفقتها هي أيضا.

وكان من نتيجة بناء هذه المدارس

للعالمات.

جميع جهاته لا تكاد تقع قدمه على غير الكتب. ولا ننسى ما آلت إليه المكتبات الإسلامية بالأندلس، فلقد لقيت هي نفس مصير مكتبات الزيتونة على أيدي محاكم التفتيش الإسبانية، وبإتلاف هذه الكتب فقدت المصادر التي أرخت للمرأة بشكل أوسع.

ملاحظة: للموضوع مراجع

3 - عدم اهتمام المرأة بتدوين أخبار بنات جنسها وذكر إسهاماتهن في ميادين العلوم المختلفة.

4 - جناية الاحتلال على المكتبات، وأخصّ بذكر ما آلت إليه مكتبات جامع الزيتونة في عهد الاحتلال الإسباني، إذ كانت رمزا لتألق الحضارة الإسلامية، فمزقوها بسيوفهم، وداستها أرجل خيولهم، وقيل أن المارّ حول الجامع من

